✸ سورة الزلزلة:

1) اسمها:

سورة الزلزلة ليس لها فيما أعلم إلا هذا الاسم، لكن يُصرَّف تصريفات متعددة فيقال: الزلزال، وإذا زلزلت الأرض، وإذا زلزلت، والزلزلة.

2) أين نزلت؟

اختلف فيها هل هي مكية أو مدنية.

جمهور المفسرين: على أنها سورة مدنية.

قالوا: إنها لما نزلت قرأها النبي ﷺ فبكى أبو بكر -رضي الله تعالى عنه- من قوله: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾.

منهم مَن يقول: أنها سورة مكية.

3) عدد آياتها

ثمان آيات.

4) فضائلها:

جاء رجل من الصحابة إلى الرسول ﷺ قال: يا رسول الله علمني شيئًا من القرآن، فإني قدر رقَّ عظمي وكبر سنِّي، وثقل لساني.

فقال له النبي ﷺ : ﴿اقرأ شيئًا من المسبحات﴾، فقال: يا رسول الله الأمر أشد عليَّ، فلو خففت عليَّ.قال: ﴿اقرأ قول الله -عز وجل- "إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا"﴾. قال: والله يا رسول الله لا أزيد على هذه ولا أنقص ، فلما ولى قال النبي ﷺ: ﴿أفلح إن صدق﴾، وذلك لأنه لو أخذ بهذه الآية لكفته، فهي آية جامعة فاذَّة ما تركت شيئًا من الخير ولا الشر إلا دخل في مضمونها.

وهذا يبيِّن لنا أن من يريد القرآن للعمل يكفيه الشيء اليسير للقرآن، وقد قال الإمام الشافعي لما مرَّ بسورة العصر قال: "لو ما أنزل الله حجة على خلقه إلا هذه السورة لوسعتهم". لأنها قد جمعت الأسباب المنجية من الخسران.

فسورة مكوَّنة من سطرين اثنين ستكون سببًا لنجاة الناس كلهم لو أخذوا بها، ليس القصود أنهم علموها أو فهموا معانيها؛ بل عملوا بها واتخذوها دستورًا وحجة بينهم وبين الله -سبحانه وتعالى.

5) محورها:

ذكر هول يوم القيامة وانقسام الناس فيه، فمنهم مَن يكون من أهل اليمين، ومنهم مَن يكون من أهل الشمال كما قال الله -عز وجل: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ﴾ ، ثم فيها بيان السبيل لأن تكن من أهل اليمين، والسبيل لأن تكون من أهل الشمال وهي: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾، وهذه الآية تسمى "الآية الجامعة الفاذَّة"، لأنها جمعت الخير والشر، وذلك لأن الله قد أبلغنا بأبلغ عبارة ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ ، والذرة: شيء يسير لا يكاد يُحسّ به البدن عندما يلمسه.

6) مناسبتها لسورة البينة :

في سورة البينة البشر قسمان: (قسم هو شر البرية ، وقسم هم خير البرية.)

فجاءت هذه السورة لتبين كيف يكون الإنسان من هؤلاء أو من هؤلاء، إنما يكون من هؤلاء بالعمل ومن هؤلاء بالعمل، وألا يستصغر شيئًا من الشر يأتيه، ولا يستصغر شيئًا من الخير يأتيه لأن الجميع مُحصى وسيوزن وسيراها الإنسان في صحيفة عمله.

✸ تفسير الآيات:

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾:

زلزلت: حُرِّكت حركتها الشديدة العظيمة المهولة ، فتهتز الأرض هزة عظيمة مهولة يرتجّ كل شيء عليها، وذلك لأنه في يوم القيامة سيتغيَّر كل شيء ، الشمس، القمر، النجوم والكواكب ،الجبال الراسية، المياه، البحار، وذلك للإعلام بأن هذا الكون سيتحوَّل إلى عالم آخر وهو عالم الآخرة، وانتهى العالم الأول وهو عالم الدنيا.

﴿وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾

من آثار تلك الزلزلة تُخرج الأرض أثقالها.

أثقالها:يعني كل شيء كان فيها يخرج فيراه الناس باديًا أمامهم ، الموتى، والكنوز، حتى من الذهب والفضة يمر به الناس، يمر به السارق فيقول: في هذا قطعت يدي، ويمر به القاطع فيقول: في هذا قطعت رحمي، ويمر به القاتل فيقول: في هذا قتلت نفسًا معصومة. يبدو هكذا بين أيديهم مبذولًا ظاهرًا لا ترتفع إليه الأنفس، ولا تبالي به القلوب.

﴿ وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا﴾:

ما الذي حصل لهذه الأرض التي كانت قارَّة، وكانت مطمئنة، وكانت ثابتة، لم يكن فيها هذا الاهتزاز، ولم يكن فيها شيء من هذه الزلزلة، ما لها؟ ما الذي أصابها؟ ، لأن هذا يحدث بغتة، ويحدث في حالة لا يظن الناس فيها أن الأرض تزلزل.

﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾

أي في ذلك اليوم تتحدث الأرض بما وقع على ظهرها من خير وشر، وهذا من كمال عدل الله -سبحانه وتعالى- في عباده ، لأن العباد قد يقولون: ما عملنا شيئا ، ما صنعنا شيئًا، ينكرون!

فالله -عز وجل- يقيم لهم شهودًا من الملائكة الذين كانوا يصحبونهم، والصحيفة التي سُجِّل فيها كل صغير وكبير وقليل وكثير من كلامه، ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: 18] ، أيضًا من أعضائه وجوارحه، من الأرض التي كان يدبُّ عليها، تقول الأرض: مشى عليَّ فلان وفلان، وفلان صلى فوقي، وفلان زنى فوقي، وفلان سرق فوقي، تُحدِّث الأرض بما وقع عليها وبما حصل فيها في تاريخها الطويل لتقوم الحجة ويكمل العدل.

﴿ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا﴾:

بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا: الباء هنا للسببية ، أي تحدث أخبارها بسبب أن ربك أوحى لها، أوحى لها أن تتكلم وتُحدِّث بأخبارها.

يُقال: أوحى لها وأحى إليها بمعنًى واحد، ووحى لها ووحى إليها بمعنًى واحد، لأن الله أوحى لها أن تتحدث؛فتحدثت.

﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ﴾

أي في ذلك اليوم يصدر الناس أشتاتًا.

يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا: أي طرقًا مختلفة، لأنهم كانوا في الدنيا مختلفين، ولم يكونوا شيئًا واحدًا، والله -عز وجل- قال: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى﴾ فسعيكم مختلف ليس متحدًا، كذلك أنتم يوم القيامة ستكونون أشتاتًا مختلفين متفرقين، لستم على جادة واحدة، مَن عمل صالحًا سيرى شيئًا صالحًا، ومَن عمل سيئًا سيرى شيئًا سَيِئًا

لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ :أي بعد أن يجتمعوا في أرض المحشر ويُحاسبوا، يصدرون بعد ذلك ليروا جزاء أعمالهم، في ذلك اليوم لا عمل، ولكن ترى ثمرة العمل فمنهم مَن يُسلك به إلى اليمين، ومنهم مَن يأخذ ذات الشمال.

﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾:

أي مَن عمل منكم شيئًا من الخير سيراه اليوم، مَن عمل منكم شيئًا من الشر سيراه اليوم، وهذا الشيء لو كان مثل رأس الدَّبُّوس من دمعة، أوحرفًا واحدًا من ذكر، أو شيئًا يسيرًا من صدقة، كله سيراه الإنسان ولوكان مثل حبة القمح.

والنبي ﷺ قال: ﴿اتقوا النار ولو بشقِّ تمرة﴾، ليس بتمرة وإنما بشقها أي جزء منا، يُبيِّن لك أنه لا تهاون في الإسلام بالأشياء اليسيرة.

وقال النبي ﷺ : ﴿إياكم ومحقرات الذنوب﴾ ، وذلك لأنهن إذا اجتمعن على الإنسان أهلكنه.

فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ: سيراه، سيكون هذا الخير بين يديه يوم القيامة، جزاءه وكتابته، سيراه مكتوبًا في الصحف يفرح به ويُسر، ثم يرى جزاءه.

وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ: أيضًا نفس العملية، يعني لا تهاون لا في هذا ولا في هذا ، ولذلك لا تحقر قليلًا من الخير تأتيته ولا قليلًا من الشر تتركه.

إذن فهذه السورة تحفزنا نحن المسلمين على أن نستعد لذلك اليوم المهول. نستعد له بالعمل الصالح، نستعد باتقاء الشر كله.

سؤال

في قوله تعالى ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾، هل الخير والشر لا يجده المرء إلا يوم القيامة؟.

الجواب

ذكر ابن عباس وجماعة من أهل العلم، أن قوله ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾، قالوا: يراه في الدنيا.

لكن حقيقة الرؤية التامَّة للأعمال ولجزائها في دار الجزاء، والدنيا يكون فيها شيء من ذلك، لأن الإنسان يُدرك الآن أثر الحسنة على حاله ونفسه وماله وولده، فالله -سبحانه وتعالى- حكمٌ عدل، لا يمكن تعمل حسنة ولا ترى أثرها، وما يمكن تعمل سيئة ولا ترى أثرها، ألم يقل الله -عز وجل: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى: 30]، وقال: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ [النساء: 123].

قال أبو بكر: "يا رسول الله، أوكلما أذنب أحدنا ذنبًا جُوزيَ عليه؟" ظن أبوبكر أن الجزاء كله في الدار الآخرة.

فقال ﷺ: ﴿يا أبا بكر أليس يُصيبك الداء؟ ألست تمرض؟ ألست تحزن؟﴾، يعني أن هذا من جزاء السيئة التي وقعت فيها في الدنيا.

✸ سورة العاديات

1) اسمها:

تسمى: سورة العاديات، والعاديات ضبحًا، ولا أعرف لها اسمًا آخر.

2) أين نزلت؟

سورة مكيَّة ولا إشكال في ذلك.

3) عدد آياتها :

إحدى عشرة آية

4) محورها:

قلة شكر الإنسان، وصفاته القبيحة، وتذكيره بما يزيل ذلك عنه، فالله -عز وجل- قد ذكر فيها أن الإنسان لربه لكنود، وأنه على ذلك لشهيد، وأنه لحب الخير لشديد، فنعظه بما يزيل عنه هذا الأمر ، ﴿أفلا أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ * وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ * إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ﴾.

5) مناسبتها لسورة الزلزلة :

الزلزلة قسمت الناس قسمين، وهذه بيَّنت ما هي الصفات التي توقع الناس في أن يكونوا من أهل الشمال، وذكرتهم بما يخلصهم من أن يقعوا في غضب الله وسخطه.

✸ تفسير الآيات:

﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا﴾:

هذه السورة قال الله –عز وجل– فيها مقسمًا: ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا﴾

الْعَادِيَات: من العدو ، وهي صفة لموصوف لم يُذكر ، ولذلك اختلف العلماء فيها:

جمهور السلف وكثير من المفسرين: هي الخيل أقسم الله بها في حالة ضبحها

منهم من قال : هي الإبل

ونحن في القسم سواء أقسم الله بهذه أوبهذه، ولذلك نعتبر هذا من باب اختلاف التنوع، لأنه إن أقسم الله بهذه أو أقسم بهذه فالقسم صحيح، ولله أن يقسم بما شاء من خلقه، والمقصود يتحقق، لكن الوصف مع الخيل أوضح وأظهر منه مع الإبل ، لأن الضبح والإيراء عند القدح ﴿فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا﴾، أظهر في الخيل منها في الإبل.

وَالْعَادِيَاتِ: أقسم بالخيل عندم تعدو، ويخرج منها ذلك الصوت الذي يكون عند العدْو.

ضَبْحًا: الضبح هو صوت الخيل حين العدْو.

﴿فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا﴾

أورَت يعني أشعلت، خرج منها الشرر عندما تحتكُّ حوافرها بالأرض أو بالحصى

﴿فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا﴾:

التي تغير في وقت الصباح على العدو، وهذا يدل على أن الإغارة أفضل أوقاتها هو الصباح .

﴿فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا﴾

أي أثرن الغبار بتلك الإغارة ، فالنقع هو الغبار.

﴿فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا﴾

توسطن الجمع الذي هو ملتقى الفريقين.

سؤال:

لماذا أقسم الله بالعاديات وبحالتها هذه التي تبيِّن كيف تُقدِم على العدْو وتغير عليه وتقبل على المهالك، وتتوسط الموت وهي ترى بريق السيوف. ما الذي يحملها على ذلك؟

الجواب

قال تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾،وهذا هو جواب القسم ،كنود أي حجود وكفور بنعمة الله –عز وجل.

فهناك فرق بين الخيل وبين الإنسان: الخيل لأن صاحبها يطعمها ويربيها ويدللها ويهتم بها، إذا جاء وقت الحرب ما نسيت له المعروف، تُقدِم وتحارب، وتُقاتل وتُغير، وتثير النقع، وتتوسط الجمع، لأنها تريد أن تنقذ صاحبها وأن تهزم عدوه وأن تظفره بمن يخالفه، وما تنسى له المعروف، لا تفر ولا تهرب، وأنت أيها الإنسان يُحسن الله إليك، ويُكرمك أعظم الكرامة، ويملأ ما بين يديك وما خلفك بالنعم، ومع ذلك عندما يطلب منك شيء، عندما يقول لك أنفق يا عبدي، صلِّ يا عبدي، قاتل يا عبدي، تصدق يا عبدي، صم يا عبدي؛ وإذا بك تنكص وتفر وتنسى كرم الله عليك ونعمته الموالية عليك.

ما أشد جحودك هذه البهيمة تشكر أكثر من شكرك وتحسن لصاحبها الذي أحسن إليها في وقت الشدة وأنت تنسى فضل الله عليك في رخائك وفي شدتك ، أما في الرخاء فأنت إذا كثرت النعمة لديك طغيت، وحصل منك الخروج عن الحد المعقول في الإسراف وفي البذخ وفي الطغيان، وفي انتهاك المعاصي، وتقحم المنكرات ، وأما في وقت الضراء فإنه إذا نزلت بك الضراء استغثت بالمقبور فلان والصنم فلان.

فأنت –والعياذ بالله –كفور شديد الكفر، ولذلك قال الله –عز وجل: ﴿قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ﴾ ، يعني ما أشد كفره.

﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾

أي جحود لربه، لا يكاد يرد هذه النعمة ويعترف بالفضل لله -عز وجل-، بل إنه إذا كثر الخير لديه نسي أن هذا الفضل من الله -سبحانه وتعالى- ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي﴾، ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا * وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾

إِنَّ الْإِنْسَانَ : الذي يظهر أن المراد به الإنسان الكافر، ولا مانع أن يكون في الإنسان المؤمن شيء من التلبس بهذا الجحود بقدره لكنه لا يصل إلى الجحود التام الذي هو عند الكافر الذي يجحد نعمة الله جملة وتفصيلًا، فما تلبَّث به المؤمن من الجحود يُعتبر نقصًا في إيمانه، ولذلك نقول له: احذر واتقِ.

والمؤمن -في العادة- لا يمكن أن يسمى مؤمنًا وهو جحود، لأن الكنود هو المبالغ في الجحود وفي الكفران لنعمة الله -عز وجل.

وهذا يبيِّن لنا أن كلمة الإنسان تخضع للسياق، فتارة تُفسَّر بعموم الناس، ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئاً مَّذْكُوراً﴾ ، ﴿إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ ، وتارة تفسر بمعنى الإنسان الكافر: ﴿كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَى﴾ .

﴿وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ﴾

وَإِنَّهُ: الضمير هذا اختلف فيه.

❖ القول الأول:

يرجع إلى الإنسان، وذلك طلبًا لاتحاد الضمائر، لأن الضمير عائد عليه، ﴿وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ *وَإِنَّهُ﴾، أيضًا الضمير عائد على الإنسان، واتحاد الضمائر أولى من تفريقها ، إذن فقوله: ﴿وَإِنَّهُ﴾ أي الإنسان.

عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ: يشهد على نفسه بأنه جحود كفور، وأن يتنكر للنعمة ولا ينسبها لله -عز وجل-، ولا يقوم بشكرها كما أمر الله -سبحانه وتعالى- منه.

❖ القول الثاني:

يعود إلى الله، وإنه -أي الله- على ذلك لشهيد، أي الله يشهد عليه بانه كنود، وهذا المعنى صحيح ليس باطلًا، ولذلك يعتبر هذا الخلاف من باب اختلاف التنوع، لكن لا شك أن القول الأول أولى من القول الثاني.

﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾

وَإِنَّهُ : أي الإنسان.

الْخَيْرِ : هنا بمعنى المال. قال تعالى ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا﴾ قال العلماء: الخير هنا المال، أو المال الكثير.

لَشَدِيدٌ: كما قال تعالى: ﴿ وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا * وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾، فالإنسان محبٌّ للمال، يُقاتل من أجله، يعيش من أجله، يسهر من أجله، يُفرِّط في حق ربه، وحق والديه، وحق أرحامه، وحق دينه، وحق بلده من أجل هذا المال الذي سيأتي وسيودعه ولا يبقى منه شيء.

وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ: فهو ذمٌّ له على محبته الشديدة للمال، لأن المطلوب في المال هو أن تجمعه من حله وتنفقه في محله، أما أن تضع قلبك فيه فهذا مذموم ولا يليق بك، والمحبة المعقولة التي تدعو الإنسان إلى كسبه وإلى طلبه لا يُلام الإنسان عليها لأنها فطرة، لكن إذا اشتدَّ ذلك حتى طغى على الإنسان وأصبح هو المهيمن على تصرفاته فهذا هو المحرم وهو الذي يقع الإنسان في البلايا.

وقال بعض العلماء: إن الآية تذم الإنسان على البخل، ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾، يمسكه فيبخل به فلا يضعه في مواضعه التي أمر الله أن توضع فيه، لا في نفقة واجبة، ولا فيما أمر الله من زكاة ونحوها، ولا في صدقة وإحسان وإكرام وغير ذلك من أنواع الإكرام التي يؤمر بها الإنسان.

﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ﴾

يعني هذا الإنسان ألا يعلم عندما تبعثر القبور وذلك إذا أثيرت هذه القبور وأخرج مَن فيها كما في سورة الزلزلة ﴿وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾.

فعندما يُبعثر ما في القبور لن تجد معك في ذلك الوقت شيئًا من هذا المال الذي أحببته وأفنيت عمرك فيه، ولن يكون معك إلا عملك الصالح وشكرك

لربك وما قدمته من بذل وتضحية وإنفاق في سبيله.

﴿وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ﴾

أي أخرج ما في الصدور.

بما أنه ذكر الحب وذكر الكنود، وهما شيئان قلبيَّان، الجحود شيء قلبي، وحب الخير لشديد، قال هنا: ﴿وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ﴾، أخرج ما في الصدور وبُيِّن وأُظهِر لك وجُوزيتَ عليه، هناك ستندم أشد الندامة.

﴿إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ﴾

أي إن الله -سبحانه وتعالى- بهم في ذلك اليوم لخبير. وهو سبحانه وتعالى الخبير بعباده في كل حال، لكن خبرته في ذلك اليوم تظهر عيانًا لنا.

والخبرة أدق من وصف العلم،لأنها علم بدقائق الأمور، ولذلك يُقال: فلان خبير بالشيء الفلاني، هذا أدق من وصف: عالم به.

فالعالم هو الذي يعلم الشيء، والخبير هو الذي يعلم دقائق هذا الشيء.

ولذلك تأتي كلمة "خبير" في المواطن الدقيقة، مثلا: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ﴾ قال"خبير" لأن "يغضوا من أبصارهم" شيء دقيق،لأنه ممكن بطرف عيني أرى شيئًا وأنتم لا تلاحظون ذلك. لكن الذي يعلم ذلك هو الله، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.

✸ سورة القارعة.

1) اسمها

سورة القارعة.

وقد جاء على منوالها عدد من السور، القارعة، والحاقة، والغاشية ، القيامة، والصاخة، والطامة، والواقعة، فهذه كلها جيء بها أوصاف ليوم القيامة، كل وصف أو كل اسم يدل على موقف، فليس هناك اسم علم يدل على يوم القيامة ليس تحته معنى.

2) أين نزلت ؟

هذه السورة طبعًا سوة مكيَّة.

3) عدد آياتها

قيل: ثمان آيات.

وقيل: عشر آيات.

وقيل: إحدى عشرة آية.

هي نفس الآيات ، لكن يختلف العلماء في الفواصل.

4) محورها:

تتحدث عن القيامة وعن أهوالها، وتبيِّن مآل الناس وموازينهم، منهم مَن تثقل موازينه، ومنهم مَن تخف موازينه.

✸ تفسير الآيات:

﴿الْقَارِعَةُ﴾:

يعني هي التي تقرع القلوب بأهوالها، لأنها مهولة كما وصفها الله -سبحانه وتعالى- في سورة الحج، قال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ

شَيْءٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾

﴿مَا الْقَارِعَةُ﴾

هذا تهويل لها، أي شيء هذه القارعة؟ إنها شيء مهول وعظيم، وهذا الأسلوب عند العرب معروف يُراد به التهويل، والتوكيد، والتعظيم، والتفخيم.

يقولون: إن إعادة الخبر بنفس ألفاظ المبتدأ تدل على التهويل أو على التعظيم أو على التأكيد، مثل ما قال النبي ﷺ: ﴿من كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله﴾، يعني ما في شيء أكثر من هذا. لكن قال في الثانية: ﴿مَن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه﴾، ما قال: "فهجرته إلى دني يصيبها أو امرأة ينكحها" لأنها شيء محتقر.

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ﴾

هذا أيضًا أسلوب في تهويل ذلك اليوم وتفخيمه وتعظيمه.

ثم بيَّن ما هو ذلك اليوم فقال:

﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾

يكون الناس كالفراش المبثوث من هول ذلك اليوم، فيه ناس تطلع، وفيه ناس تدخل، وفيه ناس تذهب بعيد، وقريبًا، كل فيه ربكة واضطراب ظاهر جدًا ، كما قال تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ﴾ ، فكلهم يمشي لكن من ذا الذي يهتدي من شدة ماهم فيه من الويل؟.

ولذلك يبشر الله المؤمنين دائمًا ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: 62]، ﴿وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ﴾ [النمل: 89]، كما أنهم في الدنيا كانوا مترقبين خائفين يُؤمِّنهم الله -عز وجل- في ذلك اليوم

كَالْفَرَاشِ: والفراش معروف، هو هذه الحشرة التي تقترب أو تأتي عند النار.

الْمَبْثُوثِ: المتفرق المنتشر.

﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ﴾:

وَتَكُونُ: أي في ذلك اليوم.

الْجِبَالُ: الراسية الضخمة المهولة التي لا يكاد أحد يستطيع أن يهدَّ منها شيئًا من قوتها وصلابتها تكون كالعهن.

كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ: العهن هو الصوف، هذا الصوف الذي يؤخذ من جلود البهائم، هذا إذا نُفِش صار خفيفًا ويقبل أن يتطاير.

وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ: هذه الجبال الراسية تكون في ذلك اليوم مثل الصوف المندوف.

يبيِّن الله لنا ذلك لشدة الهول هذه الجبال تتغير حالتها وتنقلب عما هي عليه، فبدل ما كانت صلبة يحصل لها هذا الحال المذكور في الآية.

فالجبال تمر بأحوال كثيرة، تُدكّ، ﴿وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً﴾ ، تكون كثيبًا مهيلًا ، ﴿وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا﴾، ثم يأتي من بعدها أن تكون هكذا كالعهن المنفوش، ثم يأتي من بعدها أن تراها كأنها تسير:﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ ، ثم يأتي من بعد ذلك حال تصبح قاعًا صفصفًا، لا ترى فيها عوجًا ولا أمتا، فكل موطن يُذكر فيه حال من أحوال الجبال يُناسب لك الآيات أو تلك السورة، أو الموطن الذي ذكرت فيه.

ثم بيَّن بعد هذا وهذا من أهوال تلك القارعة، قال:

﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾

فكلمة ﴿ثَقُلَتْ﴾ مناسبة لقوله ﴿كَالْفَرَاشِ﴾، لأن الناس في ذلك اليوم من شدة الهول تجدهم قد خفَّت عقولهم، وأصبحوا طائشين مثل الفراشة التي تدور وتكاد تقترب من النار التي تهلكها وتحرقها، لكن أصحاب الموازين الثقيلة يصبحون في ذلك اليوم ثقالًا متَّزنين، فيهم حكمة وفيهم وقار.

مَوَازِينُهُ: هذه الموازين اختلف فيها هل هي متعددة أو واحدة؟ وظاهر القرآن يدل على أنها متعددة.

قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ ، فهناك موازين للناس، وهناك موازين للأعمال، وهناك موازين للصحف، فالصحيفة توزن كما في حديث البطاقة، قال ﷺ : ﴿فجيء ببطاقة فيها "لا إله إلا الله" فوضعت فطاشت بتلك السجلات﴾.

فيؤتى بالشخص نفسه ويوزن، ويؤتى بالعمل ويوزن، الصلاة توزن، الصوم يوزن، الحج يوزن، الزكاة توزن، الذكر يوزن، كل شيء له ميزان.

فظاهر القرآن يدل على أن الإنسان له موازين وليس ميزانًا واحدًا، وهذه المسألة مما ذكر العلماء فيها الخلاف ، لكن سواء قلنا ميزان أو موازين؛ كل ذلك يدل على أن الإنسان سيمر بحساب عسير وشديد.

فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ: ثقلت بأعمال صالحة، بأعمال طيبة يرتفع بها الميزان ويثقل حتى ينجو الإنسان من عذاب الرحمن.

﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾

فَهُوَ: أي الذي ثقلت موازينه.

فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ: أي سيكون في عيش هنيء.

رَاضِيَةٍ: هذه العيشة نفسها راضية من شدة ما يكسب الإنسان من الرضى تكون نفس العيشة راضية.

﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾

جاء إلى يوم القيامة لكن ليس معه شيء يثقل الميزان، كل الأعمال التي كان يعملها من أجل بطنه، من أجل فرجه، من أجل لذة النظر، لذة الاستماع، ولكنه لم يُقدم على الله –عز وجل– بشيء من عمله الصالح، كانت بأيديه أموال، وكان عنده خيرات ولكنه كان يستعملها في الباطل، كان يستعلها في المباحات، ولم يستعملها ليثقل بها موازينه.

﴿ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾

قيل: أي يهوي على أم رأسه.

وقيل: فأمه التي تضمه وتؤويه إليها هي الهاوية وهي النار، وهذا المعنى في نظري أقرب.

العادة أن الإنسان يأوي في حال الشدة إلى أمه، هذا الذي خفَّت موازينه سيأوي إلى أمه، هذه الأم هي النار تضمه وتحضنه وتستقبله بحرارتها وعذابه وهلالكها الشديد.

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ نَارٌ حَامِيَةٌ ﴾

أي هذه الأم. ﴿نَارٌ حَامِيَةٌ﴾